الخطاب الروائي الجزائري:مقاربة في ضوء الانسجام اللساني(آلية التغريض) الزلزال للطاهر وطار أنموذجا

The Algerian narrative discourse: An approach in light of linguistic harmony (the mechanism of prejudice) Zilzel of Tahar wattar as a model

أسماء بن عيسى[1]

[1] جامعة بلحاج بوشعيب عين تموشنت(الجزائر)،benisafasmaa@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/03/01 تاريخ القبول: 2021/04/04 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص:

تروم هذه الورقة البحثية، الربط بين الحقل اللساني ونظيره الأدبي؛باستثمار معطيات الأول،في مقاربة الثاني وفكّ شفرته،في ظلّ التحوّل الكبير،الذي شهده الأدب،حين انفتح على العلوم،منها اللسانيات،التي أضحى على مائدتها؛ لتقوم بتفكيكه،والنظر في بنيته الفنية الإبداعية.

ولما كان هذا النسق المعرفي حقلا واسعا ومتشعّبا،فإنه قد بات لزاما على الدارس الباحث،وهو يخوض في ميدانه أن يرسم معالم بحثه؛بتحديد الآليات الإجرائية،التي تتيح له مقاربة الخطاب،واستكناه مضامينه الخفية.

وعملا بهذا المبدأ ،فإننا قد آثرنا آلية الانسجام كما يحيل عليها العنوان،كأداة لسانية ناجعة،وحسبنا أن نعتمد مفهوما واحدا،ضمن ترسانة الأدوات لهذا الإجراء اللساني ألا و هو التغريض،بغية الكشف عن قيمته في مقاربة الخطاب السردي.

المؤلف المرسل: أسماء بن عيسى.

ولأجل الغرض المنشود اخترنا رواية من عمق الحداثة السردية الجزائرية ألا وهي رواية" الزلزال" للطاهر وطار،لنقف إزاء حدود التساؤل المعرفي المؤسس: **إلى أي مدى يسهم الانسجام في فك ومقاربة الخطاب المعرفي لهذا المتن الإبداعي؟**.

كلمات مفتاحية: الخطاب الروائي الجزائري؛الانسجام؛ التغريض،الزلزال؛الطاهر وطار؛مقاربة تطبيقية.

Abstract:

This research paper aims to link the linguistic field with its literary counterpart by investing in the data of the first, in approaching the second and decoding it, in light of the great transformation that literature has undergone when it was opened to the sciences, including linguistics, which it has become on its table. To take it apart, look at its creative artistic structure.

Since this cognitive system is a wide and bifurcated field, it has become imperative for the researcher, as he delves into his field, to outline the features of his research by defining the procedural mechanisms that allow him to approach the discourse and conceal its hidden contents. Pursuant to this principle, we have preferred the harmony mechanism as the title refers to it, as an effective linguistic tool, and we calculated that we adopt a single concept within the arsenal of tools for this linguistic procedure, which is prejudice, in order to reveal its value in the narrative discourse approach.

For the sake of the desired purpose, we chose a novel from the depth of the Algerian narrative modernity, namely, the novel "zilzel" by Tahar Ouattar, to stand at the limits of the founding cognitive question: To what extent does harmony contribute to deciphering and approaching the epistemic discourse of this creative body?

Keywords: Algerian narrative discourse, harmony. prejudice, zilzel, tahar wattar; an applied approach.

1. مقدمة:

لا يخفى على أي باحث في اللغة تلك الموجة من التحوّل،التي اجتاحت الدرس اللساني الحديث ما أدّى إلى ظهور فرع جديد،بمنهج مغاير،يرتكز أساسا على فكرة التوسيع،إذ انتقلت الدراسة من مستوى أصغر إلى مستوى أكبر؛أي من الجملة إلى النص.

وهو مايعرف بلسانيات النص،التي شكّلت منعطفا كبيرا في البحث اللساني،بمفهومها،الذي يتجاوز الحدود الضيقة للجملة،التي تلاشت؛نتيجة تفطن اللغويين إلى كون" التحليل المحدود بسقف الجملة غير كاف للتصدي لجوانب نصية كثيرة،فمن غير الممكن أن تدرس الجملة بعيدا عن سياقها اللغوي المتمثّل في النص"[1](مصطفاوي جلال،2014،ص235).

فهذا النسق المعرفي،يقوم في منهجيته على اعتبار النص هو الوحدة الكبرى في التحليل اللغوي،إذ يتصدّى لدراسة نسيجه انتظاما واتساقا وانسجاما،بالكشف عن الآليات،التي تسهم في انبنائه وتأويله.فالمفاهيم،التي يعتمد عليها في أداء ما يوكل إليه من نماذج نصية تحليلية،تتوزع على آليتين؛ إحداهما،تهتم بسطح النص الخارجي،أي الاتساق،والأخرى عميقة،أي الانسجام،الذي يعنى بالمستوى الدلالي العميق.

ومن هذا المنطلق،نعمد إلى استحضار التساؤل المؤسس،:**إلى أي مدى يسهم الانسجام في فك النص/ الخطاب المعرفي ومقاربته ؟.**

فالدراسة،التي نضعها بين يدي القارئ محدودة بحدود الانسجام،الذي سنعتمد في دراسته على منهج تحليلي،ينطلق من فرضيتين،تتمثل الأولى في كون الانسجام،يؤثر في توجيه دلالة الخطاب السردي الروائي،أما الفرضية الثانية،فهي أنه يعمل على إجلاء المسكوت عنه.

وهو ما نبتغي إثباته من بوابة النموذج التغريضي،الذي نهدف من خلاله إلى استنطاق متن الزلزال للروائي الجزائري الراحل الطاهر وطار.

بيد أنه رأينا من الضرورة المنهجية و المعرفية،التي يستلزمهما أي بحث قبل الولوج في الشق التطبيقي له، أن نمهد بجانب تنظيري مختصر،نتناول فيه باقتضاب شديد ماهية المصطلحات المفاهيم للعمل،حتى يكون القارئ على بيّنة من أمره.

2.المصطلحات المفاتيح للدراسة:

يعالج هذا الجزء التنظيري الكل والجزء؛أي ما تعلق بالعام،وهو الانسجام،أما الجزء،فيراد به الخاص ،الذي يعود على التغريض. **فما معنى الانسجام والتغريض؟**.

1.2 الانسجام:

الانسجام هو المقابل العربي للمصطلح الإنجليزي coherence،وثمة مقابلات أخرى منها الالتحام، و الحبك،والترابط المفهومي،والتماسك المعنوي وغيرها،حيث اختلف الدارسون المتخصصون في ترجمته إلى العربية.

و عن ماهيته، فهو كما يقول ليفاندوفسكي "حصيلة تفعيل دلالي، ينهض على ترابط معنوي بين التصورات و المعارف،من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات،على معنى أنها شبكة دلالية مختزنة ،لا يتناولها النص غالبا على مستوى الشكل،فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم الحبك الضروري أو ينشئه"[2] (محمود بوستة،2009/2008،ص145).

فالانسجام ،يرتبط بالبنية العميقة كما-أسلفنا الذكر-،وكذا يحيل التعريف على ارتباطه بالقارئ، ذلك أنه ليس شيئا معطى في الخطاب ،فليس ثمة خطاب منسجم بذاته،وآخر غير منسجم بمنأى عن المتلقي، بل إن الأخير ،هو الذي يقوم بعمليات معقّدة على مستوى الفهم والتأويل؛لكي يحكم على انسجام مدونته.

2.2 التغريض:

يعدّ التغريض واحدا من أبرز آليات انسجام الخطاب/النص،حيث يراد به" نقطة بداية قول ما"[3] (محمد خطابي،1991،ص59).و"نقطة بداية أي نص تكمن في عنوانه أو الجملة الأولى"[4](الطيب الغزالي قواوة،2012،ص70).

فهذا الإجراء اللساني المزدوج المفهوم،يؤسس للعلاقة والارتباط الوثيق بين ما يدور في الخطاب/ النص،وبين عنوانه الرئيس أو نقطة بدايته، حيث ينهض كلا العنصرين بدور تأويلي فعّال يساهم في إضاءته، و فك شفرته.

أ/العنوان:

يشكّل العنوان عنصرا مهما من العناصر الموازية paratextes للنص الأصلي،إذ يمثل سلطته وواجهته الإعلامية.فهذه العتبة هي البؤرة،والتيمة الكبرى،التي يتمحور حولها المضمون،إذ إن إغفالها،سيؤدي حتما إلى نوع من السلوك المغلوط في فهم المتن،وامتلاكه مشوّها.

فالعنوان-إذن- مرآةٌ للنص،الذي يثيرحدس القارئ،حيث يتمّ الفهم وبناء المعنى،عبر الجسر التأويلي،الذي يربط بين تفكيره،والمتن بقصدية واضحةو معينة. لذا قد أضحى ذا قيمة كبيرة في الدراسات المعاصرة بعد أن كان في وقت مضى مجرّد صفة للكتاب.

وما يؤكد ذلك هو الكم الهائل من الدراسات ذات الطابع السيميائي واللساني التي اشتغلت على تحليله من نواحي متعددة تركيبية و دلالية، وتداولية...الخ.

و مادام يشكّل ركيزة أساسية في فهم المضمون،ويرسم احتمالات المعنى،التي لا تخرج عن السياق العام،فيمكن اعتباره مدخلا مهما من مداخل انسجام النص؛كونه يقوم باختزال وتلخيص محتواه، و من ثم يجسد الوحدة الكلية له.

ب/نقطة البداية:

إن نقطة بداية النص،تعني بكل بساطة عتبة الفاتحة النصية*incipit* في النقد المعاصر ضمن خطاب العتبات، والتي ليست بالضررة جملة واحدة، بل هي أوسع من ذلك.

فهذا العنصر اللساني والنقدي تتجلى أهميته في كونه يحدد كينونة النص،فالبداية" تمثّل عتبة إستراتيجية يتم فيها شروع النص نفسه في التخلق و الوجود كخطاب متصل، أي المرور من مجال الواقع إلى مجال الخيال من الماقبل إلى ما البعد وذلك بوساطة خطابية في فضاء الكتابةوالقراءة"[5](سهام السامرائي،2016،ص144).

أما للقارئ، فتضعه في سياق الأحداث، إذ " و بمجرد الإتيان على قراءتها يتم طرح السؤال: وماذا بعد؟ ما الذي سيكون؟"[6](صدوق نور الدين،1994،ص19).

3.المقاربة التطبيقية:

نصل بهذا العنصر إلى المقاربة التطبيقية للموضوع،التي نحاول من خلالها تمثل معطى التغريض بشقّيه، تحليلا و استنطاقا لنص الزلزال،الذي يعدّ من أبرز الروايات في الفترة السبعينية،التي شهدت قرارات سياسية حاسمةجدا.

1.3السياق العام للرواية:

تعالج الرواية موضوع " الثورة الزراعية"،وكيف أن قانونها كان بمثابة الشوكة في حلق البرجوازيين من الإقطاع، الذين يمثلهم البطل العاقر " بوالأرواح" ، إذ بمجرّد سماعه قرار التأميم (الأرض لمن يخدمها) بادر إلى التفكير في حيلة خبيثة يرواغ بها الحكومة،حيث قادته جريا إلى قسنطينة ليبحث فيها عن أقارب له لم يكن قد زارهم منذ مدة بغية تسجيل أراضيه باسمهم تسجيلا صوريا(على الورق) ،يقضي بعدم حيازتهم لها إلّا بعد وفاته.

و في خضم تلك الرحلة الشاقة،يعبّر عن تدمّره من الوضع الذي آلت إليه المدينة بعد الاستقلال،فقد فقدت صورتها الجميلة،التي كانت عليها أيام الاحتلال ،لتتحول إلى مدينة الرعاع الذين هجروا بواديهم،وملئوا شوارعها بضجيجهم و عبثهم.

ومع تتابع الأحداث تأتي النهاية التي لم تكن متوقعة لدى الشيخ،حيث فشل في تنفيذ مخططه، الأمر الذي قاده إلى الجنون؛بمحاولة الانتحار من أعلى الجسر وسط أنظار الحضور، إذ كادت المأساة أن تتم لولا تدخل الشرطة التي حالت دون ذلك، فتغيّر به المصير باتجاه مستشفى الأمراض العقلية.

2.3 التغريض في الرواية:

يمثل التطبيق القراءة الحقيقية لأي عمل،والحديث عن أي مبدأ أو منهج أو مصطلح،لا يكون ذا فعالية في التقييم إلّا إذا طبق على أكثر من عينة .

و من هذا المنطلق،سنحاول أن نتمثل مفهوم الانسجام في رواية الزلزال،التي قام فيها وطار بتجسيد التحولات الزراعية التي شهدتها البلاد مع مطلع السبعينات تجسيدا كما يراه الأعرج"ليس بالشكل السياسي التهريجي المباشر،ولكن بكل ما يمكن أن يمنحه الفن الاشتراكي من إمكانات فنية للتعبير،التي تسهم في الكشف عن خلفية كل الصراعات الدائرة على الساحة"[7](واسيني الأعرج،1989،ص79).

أ/عنوان الرواية:

تتم دراسة العنوان في الغالب،وفق بنائه اللساني،وذلك قبل الالتفات إلى دلالته،لنميز بين مستويين هما المستوى الخارج نصيhors- textual ،الذي يشمل البنية التركيبية،ثم المستوى الداخل نصي co-textual،الذي يتناول صلته بالنص الذي يعنونه؛كونه يوحي بمحتواه،أوبتعبير آخر مقاربة دلالة العنوان،بناء على السياق العام للرواية.

فالملاحظ على عنوان الرواية أنه عبارة عن جملة اسمية مبتورة؛ أي ناقصة لا تحمل أي إضافة، أو بمعنى آخر كلمة " الزلزال " وقعت مبتدأ لخبر محذوف.

فالطاهر وطار قد اشتغل على آلية" الحذف النحوي"،التي تعدّ خاصية من بين الخصائص المكونة للعنوان الحديث،الذي يتميز ببنيته المعجمية الفقيرة،ولكنّه مشحون بالدلالات المختزلة للنص،حيث بدأت معه منذ كتاباته الأولى ضمن الأجناس الأخرى،المتمثلة في المجموعة القصصية " الطعنات"،و مسرحية " الهارب"،التي نشرت في مجلة الفكر بتونس، إذ يرجع اختياره للعناوين بهذا الاقتصاد ؛لكي يفرض" أعلى فعالية (...) مما يدفع إلى استثمار منجزات التأويل"[8](بسام قطوس،2001،ص36).

وعليه يتأسس التساؤل المعرفي، الذي يعبر بنا إلى الداخل النصي مفاده: **ما الدلالة التي أرادها وطار من هذا العنوان؟.**

فهو —من دون شك–خيار مقصود،لهدف يخدم النص والقارئ معا؛لأن صيغته كما تبدو عاكسة للمتن الروائي،سواء من حيث صفة الإفراد أو المعنى المعجمي،لنصل بهما إلى البعد الدلالي،الذي يستند إلى مرجعية الأحداث.

فمن الناحية الإفرادية،فإن الإفراد،يرتبط بالشخصية البطلة بولرواح،التي تصارع قرار الحكومة وحيدةً دون سندٍ ينقذها من جحيم الحاضر،المتمثل في التجريد من الملكية و الثروة،فهي تعاني العقم ما يجعلها مهدّدة بالإفلاس،و ضياع ما تمتلك من الأراضي،التي هي في الأصل ملكٌ لأصحابها،الذين وقعوا ضحية شجعها و تسلّطها.

و حتى لما اهتدت إلى حيلةٍ تضمن لها الحفاظ على ممتلكاتها، فإنّها ظلّت على تلك الحالة من التفرّد والوحدانية،بعد أن جابت شوارع قسنطينة شارعًا شارعًا،و لكنّها لم تصل إلى مبتغاها. فحال الذين كانت تعوّل عليهم في سدّ عجزها،أو بالأحرى تنفيذ مخططها قد تغيّر بمرور الزمن، حيث أضحى أغلب أقاربه الفقراء –ممن دأب استغلالهم– موظفين لدى الدولة، فمنهم من نال رتبة عسكري أو موظف سام، و آخر أصبح نقابيا أو أستاذا و هكذا...

أما معجميا،فإن المعنى اللغوي للمفردة التي اختارها الأديب عنوانا لروايته لا يخرج عن دائرة دلالية واحدة بُؤَرُها الشدة والمصيبة والبلاء،كما أنها تحيل على التغيير بتجلياته المختلفة.ومن ثم لتنفتح رؤية المتلقي بهذه المعاني على زاويتين من النص؛أولهما الحركة الباطنية التي تصيب الأرض فتشقّها، مما يؤدي إلى تغيير سطحها،وخلق ملامح جديدة على أنقاض الملامح القديمة.

فالشدة و المصيبة والبلاء في هذه الحالة ترتبط بموقف بوالأرواح السلبي،الذي استعمل الدعاء كوسيلة انتقامية من الدولة والمواطن البسيط. يقول:" يا صاحب البرهان، يا سيدي راشد(...)حركها بهم و بمنكرهم و فسقهم و فجورهم"[9](الطاهر وطار،(د.ت)،ص11).

فالموت و الدمار وسيلتا هذا الرجل المستبد في القضاء على الرعاع –حسب تعبيره– الذين تركوا قراهم و بواديهم ليلتحقوا بالمدينة، ذلك أن هؤلاء الفقراء يريدون مشاركته أراضيه التي يملكها . وهم في الحقيقة أولى منه؛لكونهم شاركوا في الثورة و جلبوا الاستقلال، وبالتالي كان من حقهم على وطنهم أن ينالوا حقوقهم التي ضحّوا من أجلها.

أما زاوية المعنى الثاني،فتتمثل في الثورة الزراعية، ذلك أنّ مشروع الإصلاح الزراعي هو بمثابة الزلزال الذي سيقوم بتعرية فئة اجتماعية آنذاك من الجذور التي تجعل من الأرض سببا في البقاء و الهيمنة.

وعليه فإن هذه الظاهرة بهذا المنظور هي فعلٌ إيجابي يكسر القاعدة الخلفية للإقطاع ،و بذلك تتخذ معناها الشمولي،و تعن بكل بساطة إسقاط زمام المبادرة من أيدي طبقة لتلتقطها طبقة أخرى [10](ينظر:بلقاسم إيمان فاطمة الزهراء،2012،ص77).

ومن زاوية نظر مغايرة ،فإنه ثمة معنى آخر ينضاف إلى المعنيين السابقين ألا و هو الإحساس الذي انتاب البطل" بو الأرواح" حين عجز عن الوصول إلى هدفه، ليتحول الزلزال إلى شعور داخلي يحطّم مناعة المقاومة والصمود، حيث بلغ الخوف مداه،و اليأس منتهاه إلى أن أصيب بالجنون الذي قاده إلى محاولة الانتحار في آخر العمل.

فالعنوان إذن، بناءً على ما سبق يدخل في علاقة تكاملية انسجامية مع متنه،حيث يرتبط به ارتباط السبب بالنتيجة،ما يعزز من مقولة أنه المفتاح الضروري للنص،كما يمكن تشبيه الصلة بينهما بالعلاقة التي تربط الجسد بالرأس.

وبما أن الانسجام قد انفتح على درس العتبات،فلابد أن يستند العنوان إلى المصاحبات النصية المجاورة للعنوان،فهي تعضده دلاليا،لاسيّما الصورة ذات المعنى البليغ،التي نكتفي بها في هذا المقام حتى لا يطول بنا الحديث.

فالناظر إلى غلاف الزلزال،يجد الصورة فيه تطرح مشهدا حكائيا،نتلمسه في تلافيق النص،الذي تتعالق معه علنا أمام أعين المشاهد،فهي إذن مرآة عاكسة ؛كونها تطرح تيمتين من جنسه،إذ تتمثل التيمة الأولى في الأرض،التي يجسّدها الغلاف الأول، ضمن الشكل الآتي:

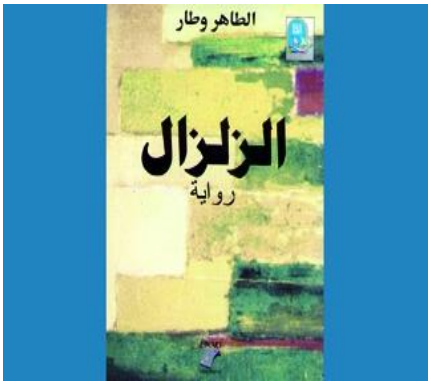

أما التيمة الثانية،فتتمثل في واجهة قسنطينة،التي يجسّها الغلاف الثاني،الذي نعرض الشكل المنوط به فيمايلي:

إن الغلاف الأول التشكيلي هو لوحة بسيطة جدا،ذلك أن المصمم لم يقم باجتهاد فني كبير إلا أنه استطاع أن يوصل الفكرة الرئيسية،أي الأرض،باعتبارها الأساس لمشروع الثورة الزراعية الذي عالجته الرواية.

فكما يبدو، فإنه يأخذ شكل مساحات أو قطع أرضية مجزأة،التي تتنوع بين الأخضر واليابس، و بذلك يكشف عن العالم الداخلي للرواية، القائم أساسا على فكرة الأرض،التي دفعت البطل إلى أن يثور على الواقع السياسي .

كما دفعته أيضا إلى مدينة قسنطينة بعد غياب طويل،ليبدأ حملة الدفاع عن ممتلكاته في فضاء تراجيدي مفجع وملعون قيامي على حد تعبير "عمار بلحسن" في دراسته لهذه الرواية[11].(ينظر:عمار بلحسن،1993،ص110)

فمن الناحية الدلالية قد جاء ملائما للموضوع،الذي ساق لأجله الطاهر وطار روايته،حيث نطقت الصورة التشكيلية له بلسان النص، أي الأراضي الزراعية.

فالملكية العقارية كانت حديث 1972 بالجزائر،إذ تقرر انتزاعها من المواطنين الملّاك للحدّ من الامتلاك الفردي، بحيث لا تزيد ملكية العائلة الواحدة سبعة هكتارات، وما زاد يوضع تحت تصرّف الدولة التي كانت تهدف بقيادة رئيسها بومدين إلى تجسيد التضامن بين ملاك الأراضي، الذين يتناقض حجم ملكيتهم مع الحد الأقصى المسموح به ،و بين مجموع الفلاحين المعدمين .

و عليه ما يمكن أن يضمن الاستقرار الاجتماعي،و الطاقة الإنتاجية الغزيرة مع الحرص على تنفيذ العملية في جو يسوده التكامل بين الفلاحين والشباب المفعمين،الذينحملوا لواء التطوع والتوعية.فالقضية –إذن– لم تكن عملية تنموية فحسب،ومحدودة المجال في الزراعة فقط،بل هي عمل حيوي،و مشروع قومي يكمن القصد منه في تجنيد كل فئات الشعب بما يدعم الوحدة الوطنية.

و ضمن هذا المسعى ظهر بعض الملاك في تلك الفترة؛ممن تخلوا عن أراضيهم طواعيةً لصالح التعاونيات الفلاحية،إذ كانت تُنشر مثل هذه الأخبار في الصحف اثباتا لروح التضامن الشعبي، و بالتأكيد لم يكن البطل واحدا منهم .

و لكنها في الوقت نفسه أثارت العديد من ردود الأفعال، فهناك من حاول التشكيك في التعاون،كما همس البعض من أن ملكية معظم الجزائريين لمساحات كبيرة مردها التواطؤ مع السلطة الاستعمارية.

و عليه بناءً على ما سبق ، فإنّ غلاف الرواية يندرج ضمن" **النوع الواقعي**" من بين أنواع الأغلفة التي تتصدر الأعمال السردية الروائية،حيث يراد به أنه يعبر عن"حدث أو مجموعة أحداث تُقدّمها الرواية"[12]. (عبد الله بن عمر الخطيب،(د.ت)،ص11).

فالحدث هو الثورة الزراعية، التي يطول الحديث عنها ،بينما المراد موقف الملاك الأغنياء منها ،في صورة بو الأرواح، الذي يمثل فئة الإقطاعيين وموقفها الرافض لقرار الدولة الإصلاحي.هذه الشخصية التي تعكس وجهين متوازيين في المجال الحركي للرواية،أحدهما ظاهر وآخر خفي،أي الديني و اللاديني .

و عن الغلاف الثاني المصور تصويرا فوتوغرافيا،فإنّه يصوّر قسنطينة، مما يعطي الانطباع بأن وقائع الرواية تدور في هذه المدينة التي تمتلك حضورا بارزا في النصوص الروائية الجزائرية، وفق أبعاد دلالية متنوعة (رمزية، أيديولوجية، تراثية...) .

فهو- إذن- غلاف مكاني بامتياز،ومنه نستخلص بأن المكان مثلما لا يتشكل بمعزل عن العناصر السردية كالشخصيات و الأحداث و غيرها ،فإنه لا يتشكل بمعزل عن عناصر النصوص الموازية .

فالطاهر وطار قد جعل من مدينة ابن باديس رحمه الله صرحا فنيا وجماليا لأحداث ومشاهد روايته،حيث تنتقل الشخصية الرئيسية في الأمكنة و الشوارع عبر التواصل الجسري، أي الجسور السبعة.

أما دلاليا،فالغلاف يتناسب مع المضمون شأن سابقه،ولكن ليس من حيث الثورة الزراعية و الأرض، و إنما من حيث الفضاء الذي يؤطره،فهو يعكس إحساس الرواية- إن صح التعبير- التي تتنفس الفضاء القسنطيني من البداية إلى النهاية، الذي يمكن معالجته حسب المعطيات الروائية من زاويتين هما زاوية الهروب، و زاوية التحول.

فالهروب يرتبط بالبطل الذي اختار قسنطينة مسقط رأسه، التي احتضنت نشأته و تعلمه للخروج من الأزمة، فهي مهد الطفولة ،ومعقل الأقارب،الذين يرى فيهم السبيل الوحيد والملجأ الآمن للحفاظ على ممتلكاته.

فقسنطينة- إذن كانت المورد الرئيس لبحر الأحاسيس، الذي يتدفق عبر شرايين القلق والتناقض داخل أوردة بوالأرواح، الذي تباينت انفعالاته بما يجتاح عقله من أفكار ،يختلط فيها الماضي بالحاضر.

أما زاوية التحول، فترتبط بالتحول الكبير ما بعد الاستقلال في التركيبة البشرية،حيث نزح إلى هذه المدينة سكان القرى و الأرياف، الذين قلبوا الأمور رأسا على عقب بحثا عن العيش، و لما كان أولئك يفتقدون للوعي الحضاري ، فقد أدى الأمر إلى ضياع المقومات الثقافية و العلمية ،إذ عبر عن الحالة بو الأرواح بقوله: " لا. لم يبق في قسنطينة علم أو ثقافة؛ مجيئهم إلى هنا لا معنى له، سوى أنّهم جاءوا يعجلون في قيام ساعةالمدينة ،بوسخهم و فسقهم و فجورهم"[13].(الطاهر وطار،(د.ت)،ص95-96)

فالبطل- كما يبدو- من المقطع السردي ناقم كثيرا على الضعفاء من الفلاحين والبطالين و المتسولين، كيف وهو قصد مدينة الجسور خصيصا لكي يقطع الطريق عليهم؛حتى لا يستفيدوا من مشروع الثورة الزراعية على حساب ممتلكاته.

فهو يدرك جيدا مدى أحقيتهم في الملكية ؛كونهم قد ناضلوا عشرات السنين ضد المستعمر بدءً من الانتفاضة الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ،ولكنّ حب التملك و النفوذ قد طغى عليه.

هذا و قد اتهمهم بالخمول و الكسل بقوله:" إنهم كسالى، لم يعودوا يرضون بالعمل في الأرض ، جاءوا المدينة لتعطيهم الحكومة العمل"[14].(الطاهر وطار،(د.ت)،ص12). فهو كإقطاعي لا يرغب في تحسن أوضاع المساكين و الفقراء بأن يصبحوا ملاكا،أو موظفين لدى الدولة و أصحاب مكانة راقية،بل يروقه أن يبقوا تحت سيطرة واستغلال الإقطاعيين المتسلطين مثله .

فهذا الإحساس نابع من شعوره الطبقي الذي تجذّر في وعيه و لا وعيه،حيث يؤمن بالطبقية و المفاضلة بين فئات المجتمع، الذي ينقسم في نظره إلى طبقة مالكة غنية ، وأخرى كادحة تخضع للسيطرة و التحكم،و يصطدم مع الرغبة الواقعية للناس،حيث كان معظمهم يرغبون في عمل ثابت، و كذا هم على وعي تام بما توفره الحكومة الاشتراكية من التطبيب و السكن و العلاج ...الخ.

فعتبة الصورة كما نلاحظ،تشتغل بكيفية لصيقة بالنص ، سواء من حيث الموضوع الذي يعالجه وهو ما يؤطره الغلاف الأول، أو من حيث الفضاء المكاني للغلاف الثاني،كما أنها تعضد العنوان الزلزال في مقتضاه التأويلي ،الذي يحفر دلاليا في عمق النص.

ب/عتبة البداية:

لقد جاءت الفاتحة أو عتبة البداية في رواية "الزلزال" ذات دلالة **حسّية**،حيث صاغها الطاهر وطار على النحو التعبيري الآتي:

" حاسة الشم تطغى على باقي الحواس،في قسنطينة في كل خطوة، وفي كل التفاتة، و في كل نفس، تبرز رائحة متميزة،صارخة الشخصية، تقدم نفسها لأعصاب وقلب المرء"[15](الطاهر وطار،(د.ت)،ص4).فالروائي قدّم حاسة الشم كأول شيء يقوم به البطل بو الأرواح لحظة وصوله إلى قسنطينة؛من أجل تنفيذ مخططه المضاد للحكومة،و لمشروع الثورة الزراعية.

بيد أنه لم يحدّد المحسوس ما يعني أنها فاتحة **إغرائية**،حيث تغري القارئ لمواصلة فعل القراءة؛بغية التعرّف على طبيعة تلك الرائحة هل هي طيبة أم كريهة؟.

علاوة عن كونها بداية مكانيةبامتياز،وذلك من خلال الفضاء القسنطيني المتميز الذي يؤطرها.ومن –دون شك- لجوء الروائي إلى توظيف الفضاء الجغرافي له ما يبرره، إذ يشكّل قناعا يختفي وراءه للتعبير عن أفكاره و معتقداته التي يؤمن بها.

فكما يقول أحد الدارسين عن المكان عموما أنه يقدم الحل للمبدع"حين يريد الهروب ،أو حين يعمد إلى عالم غريب عن واقعه ليسقط عليه رؤاه التي يخشى معالجتها،و هنا يتحول المكان إلى رمز و قناع يخفي المباشرة،ويسمح لفكر المبدع أن يتسرب من خلاله"[16](حكيم أومقران،2005،ص113).

فالأديب الطاهر وطار قد وجد في فضاء قسنطينة العتيقة متنفّسا ،لينقل لنا رؤيته الخاصة، الرافضة للبطل،الذي يمثل واحدا من المئات،الذين انطووا على عدائهم الحاد لعمليات التحديث و أفكار الحداثة.

أما عن وظائفها فهي تؤدي وظيفتين بارزتين هما" **الوظيفة الاستهلالية** "،حيث أدت دور الافتتاح النصي، أما الثانية فهي" **الدرامية**"، ذلك أننا أمام بداية،يمكن اعتبارها إما **وسطية**؛ أي الانطلاق من لحظة حدثية مهمة ،أو **قبلية** أي استباق الحكي تمهيدا لما سيأتي بعد ذلك من أحداث روائية.

ففي كلتا الحالتين لم يبدأ الروائي روايته بحدث الوصول،الذي يفترض أن يحل أولا؛كأن يقول وصل بو الأرواح قسنطينة،ثم يأتي بعده بالشم ،و إنما بدأ بالحاسة لما لها من دور سيستند إليه في إيصال رسالته إلى القارئ.

فالطاهر وطار كان ذكيا في استثمار حاسة الشم المهمة لدى الإنسان في إظهار مدى تعلّق الإقطاعي بالأرض،حيث جاء بلسان بطله ما يؤكد هذا المعنى:" هاه. رائحة التراب، الحمدلله. أخيرا رائحة التراب"[17](الطاهر وطار،(د.ت)،ص54).

فهذه العتبة إذن قد رسمت بدورها بعض ملامح المتن،حيث قدمت شحنة دلالية،تتضمن بوادر من الأحداث،بتأسيس فضول،يستدعي التساؤل في المرحلة الأولى،ثم تأويلات في المرحلة اللاحقة.فما الغموض فيها إلا إثارة وتحفيز ؛من أجل إضاءة هذا السرد اللغوي،الذي يخفي شيئا ما.

4. خاتمة:

صفوة القول بعد معالجتنا لهذا الموضوع أن الانسجام لا مناص منه، ذلك أنه يؤدي دورا أساسيا في تحقيق الترابط المفهومي لنسق الخطاب الأدبي، الذي علاوة على حبكه ، فإنّه يقوم بفكّ شفرته بعد إخضاعه لسلطة القراءة و التأويل، لاسيّما ما يتعلّق بالتغريض موضوع دراستنا.

فباستثمار هذه الآلية اللسانية،وتطويعها ضمن هيكل السرد في نص الزلزال،قد تبينت لنا قيمة العنوان في رسم معالم المضمون؛ بطابعه التفسيري والتأويلي المباشر؛نظرا للتشاكل الواضح بينه وبين المتن،حيث اشتغل بمعية الصورة،التي وقفنا عند قيمتها هي الأخرى،إذ فتحت إمكانات تأويلية ودلالية ثرة.

فالصورة لايمكن للقارئ الحصيف أن يحد من سطوتها أو يتنكر لفاعليتها في بعث القراءة و تنشيط الفعل القرائي لديه.فبلاغة الإقناع هي من بلاغة هذه العتبة المنشئة والمؤطرة للخطاب السردي ،إذ يعد هذا الأمر حقيقة لا مشاحنة فيها في المشهد البصري لعالم الإبداع اليوم،لاسيّما مع جيل الرواية الجديدة وما بعد الحداثية.

هذا فضلا عن الفاتحة بإغرائيتها،إذ أظهرت وعيا سرديا كبيرا للمؤلف الطاهر وطار بأهميتها في تحفيز القارئ،وإثارته للدخول في ميدان النص ومتنه.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1.الأعرج، واسيني، (1989)،الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية الرواية نموذجا –دراسةنقدية–، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر.

2.أومقران حكيم،(2005)،البحث عن الذات في الرواية الجزائرية(الطاهر وطار) مقاربة سوسيو–ثقافية،دار الغرب،وهران.

3.خطابي محمد،(1991)، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي،بيروت.

4.الخطيب عبد الله بن عمر،(د.ت)، النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار،د.ن، المملكة الأردنية الهاشمية.

5.السامرائي سهام،(2016)، العتبات النصيةفي(رواية الأجيال) العربية، دار غيداء للنشر و التوزيع،الأردن.

6.قطوس بسام،(2001)،سيمياء العنوان،وزارة الثقافة،الأردن.

7.نور الدين صدوق، (1994)، البداية في النص الروائي، دار الحوار للنشر و التوزيع، سورية.

8.وطار الطاهر،(د.ت)،الزلزال،(د.ن)،(د.م).

الأطروحات:

- بوستة، محمود،(2009/2008)، الاتساق والانسجام في سورة الكهف ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر.

المقالات:

1.بلحسن عمار،(1993)،صراع الخطابات حول القص والإيديولوجيا في رواية الزلزال للطاهر وطار،مجلة التبيين،دون مجلد،العدد(7)،صفحات المقال من110إلى135.

2.بلقاسم إيمان فاطمة الزهراء ،(2012)، المستوى التركيبي في رواية الزلزال للطاهر وطار ، مجلة الأثر، دون مجلد،العدد(16)،صفحات المقال من75إلى87.

3.جلال مصطفاوي ،(2014)،الدرس النحوي من الجملة إلى النص مقدمة للقارئ العربي، مجلة قراءات للبحوث و الدراسات الأدبية و اللغوية ،دون مجلد، العدد(2)،صفحات المقال من 192 إلى207.

4. قواوة الطيب العزالي ،(2012)،الانسجام النصي و أدواته،مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري،دون مجلد،(08)،صفحات المقال من 61إلى85.